Al-Fikr Al-Siasi Al-Islami
EISSN: 2015-2783
Islamic Sciences and culture Academy
Scientific-Specialized Bi-Annual journal
Vol. 1 ● No. 2 ● Issue 2 ● Autumn & Winter 2021

Western Humanities Are the Product of Modernity's Break with Religion

Talal Etrisi[1]

Received: 12/07/2021 Accepted: 08/11/2021

Abstract

Europe has witnessed four important events in a row that will have a profound impact on people's lives and mindsets. These events and changes will take place as follows: Coups against the Church, religious wars in Europe, the French Revolution, and the Industrial Revolution in Britain. These changes were associated by changes in the way of thinking and looking at human problems that were far from the logic of the church and the principles and foundations of religion and the relationship with the unseen. These changes have affected the concepts and ways of thinking in the humanities and social sciences to such an extent that it now looks at people as a material object. The result of the break between science and religion in the West has been to bow down and celebrate the superiority of the individual and individualism, which will soon have important implications at the intellectual, philosophical, educational, social, artistic, and other levels. Western science was established in the humanities and social sciences with the belief that science could replace religion. Therefore, modernity became the worship of knowledge and the abandonment of the worship of heaven. However, this claim never led sociology to a "better design of the world."

Keywords

Sociology, religion, modernity, science, experience, individualism.

1. Professor of Sociology, former President of the Research Institute of University of Lebanon, Scientific Adviser, and Academy of the Lebanese University of Education. Atrissi_talal@hotmail.com.

* Etrisi, T. (2021). Western Humanities Are the Product of Modernity's Break with Religion. Journal *Scientific-Specialized Bi-Annual*, 1(2), pp. 76-108. DOI: 10.22081/ipt.2022.63339.1002

الفكر السياسي الإسلامي
EISSN: ٢٠١٥-٢٧٨٣
مجلة علمية نصف سنوية
المجلد ١ • العدد ٢ • الرقم المسلسل للعدد ٢ • خريف و شتاء ٢٠٢١

العلوم الانسانية الغربية وليدة القطيعة الحداثية مع الدين

طلال عتريسي [١]

تاريخ الاستلام: ٢٠٢١/٠٧/١٢ تاريخ القبول: ٢٠٢١/١١/٠٨

الملخص

شهدت أوروبا أربعة أحداث كبرى متعاقبة ستترك تأثيراتها العميقة على حياة الناس وعلى طرائق تفكيرهم، وستكون هذه الأحداث والتحولات على الشكل التالي: الإنقلاب على الكنيسة، الحروب الدينية في أوروبا، الثورة الفرنسية، الثورة الصناعية في بريطانيا. ترافقت هذه التحولات مع تغيرات في طريقة التفكير وفي النظر الى مشكلات الإنسان بعيداً من منطق الكنيسة ومن ضوابط الدين والإرتباط بالغيب. وطاول هذا التغيير المفاهيم ومناهج التفكير في العلوم الانسانية والاجتماعية التي باتت تنظر الى البشرعلى أنهم "أشياء" . إن القطيعة التي حصلت بين العلم والدين في الغرب، نتج عنها تعظيم أولوية الفرد والفردانية، التي سيكون لها تأثيرات مهمة على المستويات الفكرية والفلسفية والتربوية والاجتماعية والفنية وسواها. لقد تأسس العلم الغربي في العلوم الإنسانية والاجتماعية على هذا الاعتقاد بقدرة العلم على أن يحل محل الدين. وتحولت الحداثة الى عبادة المعرفة ورفضت عبادة السماء. لكن هذا الإدعاء لن يقود السوسيولوجيا الى"تصميم العالم بشكل أفضل".

الكلمات المفتاحية

السوسيولوجيا، الدين، الحداثة، العلم، التجريب، الفردانية.

١. أستاذ علم الإجتماع. عميد سابق للمعهد العالي للدكتوراة في الجامعة اللبنانية. مستشار علمي وأكاديمي في جامعة المعارف في لبنان. atrissi_talal@hotmail.com

* عتريسي، طلال. (٢٠٢١). العلوم الانسانية الغربية وليدة القطيعة الحداثية مع الدين. الفكر السياسي الاسلامي، ١ (٢)، صص ٧٦-١٠٨. DOI: 10.22081/ipt.2022.63339.1002

مقدمة

أدت التحولات الكبرى التي مرتّ بها المجتمعات عبر التاريخ، مثل الحروب والثورات والإكتشافات العلمية والتطور التقني والتكنولوجي، والعوامل البيئية مثل التصحّر أوالفيضانات وحتى الأوبئة المميتة، الى تغيير كبير في نمط حياة الناس، وفي طرائق تفكيرهم.

ففي التجربة الأوروبية على سبيل المثال التي قدمت علوماً إنسانية باتت عالمية، كان للطاعون في منتصف القرن الرابع عشر الذي أطلق عليه "الموت الأسود" تأثير كبير في التحولات التي حصلت في أوروبا. وتتفق المصادر المختلفة التي أرّخت لهذا الوباء أن تبعات"الموت الأسود" أدت الى عدد من الهزّات الدينية والاجتماعية والاقتصادية، التي بدت آثارها جسيمة على التاريخ الأوربي (Barry & Gualde, 2006, pp. 45–46).

لقد استمر هذا الوباء القاتل أربع سنوات خسرت خلالها أوروبا أكثر من خمسين مليوناً من سكانها (ربع الى ثلث السكان بحسب التقديرات) ثم تجدد مرات عدة كل بضع سنوات، وعرف باسم الوباء الثاني بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر. وقد احتار رجال الدين والمعالجين في تفسير أسبابه فمنهم من ذهب الى القول أنه غضب الآلهة، أو هي الزلازل والبراكين، في حين رمى آخرون التهمة على اليهود الذين "سمّموا آبار المياه" (P Byrne, 2012, p. 15).

كان من أبرز تداعيات هذا الوباء وما أدى اليه من خسائر هائلة في الأرواح، ومن تغيير في نمط حياة الناس، أن ضعُفت سلطة الكنيسة، التي عجزت عن إنقاذ الناس من"الموت الأسود"، بعد وعودها لهم بالخلاص والشفاء. ولم تنفع اتهامات رجال الدين القطط بنقل الوباء بعدما تلبّستها الأرواح الشريرة فأمرت بقتلها... ما أتاح تكاثر الفئران التي ساهمت في نقل الطاعون وانتشاره بشكل واسع. "لقد أصبح رجال الدين على المحك، وتوجّب على المدنيين أن يتلمسوا طرقاً أخرى جديدة الى السماء"(جوتفريد، ٢٠١٧م، ص١٣٥).

تأثرت ثقافة المجتمع بما تركه هذا الوباء من مآس وضحايا. "فقد تحوّلت الثقافة الأوروبية بعد سنة ١٣٥٠م، إلى ثقافة مَرَضية بشكل عام. كانت الحالة العامة هي التشاؤم، وحتى الفن المعاصر تحوّل إلى فن مظلم مفعم بتجسيد الموت" (Bennett & Hollister, 2006, p. 372).

أما في عصر النهضة بعد الإنقلاب على الكنيسة وإضعاف سلطتها، فستتحول هذه الثقافة الى ثقافة الإنعتاق والحرية والإستمتاع بملذات الحياة بعيداً من أي أوامر أو ممنوعات كنسية أو دينية.

حدثت على جبهة الطب في الوقت نفسه تغّيرات مهمة بفضل هذا الطاعون، فقد تطورت إجراءات الصحة العامة، وتم اكتشاف الدورة الدموية وإحياء علم التشريح. كما تطورت التقنية الصناعية تحت ضغط قلة الأيدي العاملة. وسيُعرف العصر الذي امتد حتى ١٥٠٠م بعصر الابتكارات.وهو العصر الذي ستتطور فيه الإبتكارات والإكتشافات العلمية والصناعية والذي سيطلق عليه عصر النهضة الأوروبية، أو عصرالأنوار قياساً الى، ومقارنة مع ما اُعتبر عصور الظلام (زمن السيطرة الكنسية والدينية) أو العصور الوسطى في أوروبا نفسها.

هكذا ستشهد أوروبا مرحلة جديدة في تاريخها بعد ما عرف ب"الوباء الأسود"، هي مرحلة تراجع سلطة الكنيسة في الوقت الذي سيبدأ فيه تقدم البحث العلمي. لقد عجز التفكير الكنسي عن تفسير أسباب الطاعون (مثل اتهام القطط بنقل الأرواح الشريرة التي تسبب الطاعون) كما عجز عن تقديم العلاج للمصابين، في الوقت الذي كانت تدعي فيه الكنيسة امتلاكها المعرفة في المجالات كافة، وتمنع أي تفكير علمي حتى في القضايا غير الدينية يخالف ما تراه هي صحيحاً، فتتهمه بالهرطقة والمروق عن الدين.

لن يقتصر الأمر على هذا التحول الكبير الذي حصل بسبب "الوباء الأسود"، بل ستشهد أوروبا أيضاً أربعة أحداث كبرى متعاقبة ستترك تأثيراتها العميقة على حياة الناس وعلى طرائق تفكيرهم وحتى على أسس العلوم الإنسانية والاجتماعية

ومنطلقاتها ونظرياتها. وستكون هذه الأحداث والتحولات على الشكل التالي:

- الإنقلاب على الكنيسة وما أدى اليه من تهميش دور الدين في الحياة السياسية والإجتماعية والعلمية في مطلع القرن السادس عشر
- الحروب الدينية في أوروبا التي استمرت نحو ١٣٠عاماً من بدايات القرن السادس عشر حتى منتصف السابع عشر من ١٥١٧ الى ١٦٤٨ بين الكاثوليك والبروتستانت
- الثورة الفرنسية في نهايات القرن الثامن عشر (١٧٨٩) التي رفعت شعارات العلمانية والحرية والمساواة ضد النظام الإجتماعي القديم (وكانت شديدة الهجوم على الدين والكنيسة، وعملت على تحويل المجتمع عن المسيحية وطرد الشخصيات الدينية من مختلف المؤسسات)

الثورة الصناعية في بريطانيا ثم في معظم أوروبا (خلال القرن الثامن عشر) وما أدت اليه من ابتكارات تقنية مثل الطاقة البخارية وتوسع الصناعة واستخدام معدات آلية، وصولا" الى ثورة صناعية واسعة في القرن التاسع عشر.وسيكون لهذه الثورة تداعيات اجتماعية وأشكال جديدة من القيم ومن العلاقات، مثل تغيير بنية الأسرة، وخروج المرأة من المنزل الى العمل، وهجرة السكان من الأرياف الى المدن، وتعظيم قيم الملكية وانتقال الأسواق الى المدن الكبرى. ويضيف "ريتشارد تارتاس" في كتابه "آلام العقل الغربي" أربعة اختراعات كانت قد انتشرت على نطاق واسع في الغرب، انطوت على تبعات ثقافية بالغة الأهمية وأنزلت ضربة قوية برجال الدين وهي: البوصلة المغناطيسية التي أتاحت المشروعات الملاحية العظيمة وفتحت كوكب الأرض أمام الإستكشاف الأوروبي؛ والبارود الذي أسهم في زوال النظام الإقطاعي وصعود النزعة القومية؛ والساعة الميكانيكية التي أحدثت انقلاباً حقيقياً في علاقة الإنسان بالزمن والطبيعة والعمل؛ وآلة الطباعة التي أفضت الى زيادة هائلة في التعليم ..وأنزلت ضربة كبيرة باحتكار رجال الدين الطويل للعلم (تارناس، ٢٠١٠م، صص ٢٦٩ و٢٧٢). وسيكون لهذه الثورة

العلمية تأثير واسع وعميق على مناهج التفكير التي ستتجاوز قضايا المادة والفيزياء والمختبرات الى قضايا الإنسان والمجتمع والسلوك وما سيعرف لاحقاً بالعلوم الانسانية والاجتماعية.

تعرضت الحياة الفكرية في العصور الوسطى إلى قيود صارمة حجبت عنها نور المعرفة والتقدم. وتتفق المصادر التاريخية المختلفة على الدور السلبي المباشر الذي لعبته الكنيسة في تثبيت تلك القيود، بعدما تبنّت آراء ومبادئ اعتبرتها ثابتة في شؤون الحياة وحركة الأفلاك وقوانين الطبيعة، ومنعت النقاش فيها... اعتبرت الكنيسة أن أي رأي أو حتى أي فكرة، تخالف ما تراه هي ثابتاً وصحيحاً، مثابة خروج على سلطانها وتحد لها يستحق أما التوبة أوالعقاب. حتى أصبحت الحياة الفكرية جحيماً لا يطاق "والهرطقة" سيفاً مسلطاً على رقاب كل من يتجرأ على مخالفة تلك الآراء في أي شأن من الشؤون العلمية أو الفكرية. ولا تزال مأساة "غاليلو" تتردد في سير التاريخ التي تتحدث عن تلك الفترة، وهو الذي قال بدوران الأرض وعدم ثباتها، خلافاً لرأي الكنيسة التقليدي القائل بأن الأرض ثابتة لا تتحرك، فتعرّض لحملة شرسة شنتها عليه الأوساط الدينية، ولمحاكمة قاسية صدرت أثرها مراسيم رسمية عام ١٦١٦م (برونوفسكي، ١٩٨١م، ج٣٩، ص ١٦٥) ما اضطره وهو في السبعين من العمر إلى التراجع وإلى توقيع إقرار يتخلى فيه عن "الرأي الكاذب بأن الشمس مركز الكون وأنها غير متحركة وأن الأرض متحركة وليست مركز الكون... وأن يقسم على رفض ولعن واحتقار الأخطاء والهرطقات السالفة وكل خطأ آخر إذا كان مضاداً للكنيسة..." (برونوفسكي، ١٩٨١م، ج٣٩، ص ١٦٧). وقد وضع غاليلو رهن الإقامة الجبرية بقية حياته، ومات وهو لا يزال سجيناً في بيته عام ١٦٤٢.

وتؤكد قصة المفكر الإيطالي برونو (١٥٤٨-١٦٠٠) تلك القيود التي فرضتها الكنيسة على الحياة الفكرية. فقد قُدِّم هذا الرجل إلى إحدى محاكم التفتيش الكاثوليكية لمحاكمته بتهمة العقوق الديني لأنه أصر على رأيه بوجود عوالم غير عالمنا

هذا، فحكم عليه بالموت حرقاً بالنار (حفني، بلا التاريخ، ص ٥٨). ومن المعروف أن الفلكي البولندي كوبرنيكوس الذي توصل إلى أن الأرض والكواكب السيارة الأخرى تدور حول الشمس وحول نفسها خالف النظريات والمفاهيم الفلكية القديمة، قد تعرّض بدوره لإدانة الكنيسة الكاثوليكية لأن نظريته مخالفة لنصوص "الكتاب المقدس" (أغروس، ستانسبو، ١٩٨٩م، عدد ١٣٤، ص ١٥٨).

"كانت سلطات الكنيسة مع حلول القرن الثالث عشر خارقة للعادة، وكانت البابوية تتدخل تدخلاً فاعلاً في قضايا الدول وشؤونها في طول أوروبا وعرضها، وتجني مبالغ طائلة من المؤمنين؛ دعماً للأبهة المتعاظمة لبلاط البابوية وجهازها البيروقراطي العملاق..إن سيادة البابا الزمنية على الدول (الولايات) البابوية في إيطاليا أدت الى توريط الكنيسة في سلسلة من المناورات السياسية والعسكرية.. أدت الى إفقادها تماسكها الروحي في نظر المؤمنين... وتعرّض دور الكنيسة الفعلي لقدر متزايد من التهميش..." (تارناس، ٢٠١٠م، صص ٢٣٧- ٢٣٦).

عصر النهضة: حداثة العقل وإقصاء الدين

إذا كانت العصور الوسطى قد اتسمت بالهيمنة الكنسية على الحياة الروحية والزمنية، وانتشار الشعوذة وفكرة الشياطين والخرافات في حياة الناس، فإن سمات النهضة ستتشكل من خلال الانقلاب على تلك الهيمنة على جميع المستويات الفكرية والسياسية وحتى الروحية، "ومن تضاؤل سلطة الكنيسة وتزايد سلطة العلم" (برينتون، ١٩٨٤م، عدد ٨٢، صص ١٦٤-١٧٠).

وستصبح"الدعوة الى الحرية في عصر النهضة على سبيل المثال أحد أبرز مفاهيم الإنقلاب على سطوة الكنيسة وقيودها الفكرية والسلوكية. فالحركة الإنسانية حملت راية الدعوة إلى الحرية الفنية والتأكيد على الفردية والحرية الأخلاقية، وحركة الإصلاح البروتستانتي دعت إلى الحرية الدينية، والحركة العقلانية توجهت إلى تعزيز سلطة العقل وحريته على حساب ما هو خارق

وغيبي وإعادة الإنسان إلى إطار الطبيعة أو الكون المادي، حتى أن حركة التنوير في القرن الثامن عشر، وأبرز ممثليها إسحق نيوتن وجون لوك، شددت على العداء لرجال الدين وعلى الهجوم على المسيحية كمؤسسة و"على التحول من نعيم المسيحية الغيبي في السماء بعد الموت إلى النعيم العقلاني الطبيعي على الأرض الآن أو على الأقل في القريب العاجل" (برينتون، ١٩٨٤م، عدد ٨٢، صص ١٦٩). ولأن بإمكان القوانين الرياضية وليس تعاليم الكتب المقدسة تفسير كل ظواهر الطبيعة، بما في ذلك سلوك الإنسان" (برينتون، ١٩٨٤، عدد ٨٢، صص ٣٧). حتى أن فنون هذا العصر تميزت هي أيضاً بالبوهيمية التي لا تقيم وزناً للأعراف خلافاً لفنون العصور الوسطى التي ارتبطت دائماً بالكنيسة" (شورون، ١٩٨٤م، عدد ٧٦، ص ١٢٣).

وحتى التفكير في الموت من المنظور الديني نُحّي جانباً ليستبدل بالدعوة الى "عيش الحياة ولحظاتها من خلال المحسوس والتجربة فقط... بعيداً عن الغيب والآخرة، حتى أصبحت مقولة "عش لحظتك" شعار رجل عصر النهضة (شورون، ١٩٨٤م، عدد ٧٦، ص ١٤٣).

أدى ما لحق بالكنيسة من تهميش، وما دفع اليه عصر النهضة الإنسان ليعيش"لحظته"، واستبعاد الموت من التفكير، الى "تحرير" الفرد ليس من سلطان الكنيسة فقط بل ومن سلطان أي تقاليد أو قيود، أو أخلاقيات كانت مشتركة بين أفراد المجتمع ليصبح تعظيم الفردية هدفاً للدرسات الإنسانية والاجتماعية وهدفاً في الوقت نفسه لماكينة الدعاية الإستهلاكية (راسل، ١٩٧٠م، الجزء الأول، عدد ٦٢، ص ٨).

قامت"عقلانية"عصر النهضة على أنقاض نظرة غيبية وتفسير غيبيين لشؤون الحياة والطبيعة، فرضتها الكنيسة على الناس، وأرادت هذه "العقلانية" أن تثبت أن بإمكان العقل وحده معرفة الحقيقة، وإليه دون سواه يجب أن نرجع في تفسير الظواهر الطبيعية وحتى الإنسانية. وهذا ما ستتبناه نظريات علم الاجتماع التي ظهرت الى الوجود في تلك المرحلة، والتي اعتبرت أن فهم الإنسان يجب

أن يخضع للمنطق نفسه الذي تخضع له دراسات "المادة" في العلوم الطبيعية والفيزيائية.

ترافقت هذه التحولات في طريقة التفكير وفي النظر الى مشكلات الإنسان بعيداً من منطق الكنيسة ومن ضوابط الدين والإرتباط بالغيب، مع انقلاب في أنماط الحياة في أوروبا. فقد دفع اكتشاف آلة البخارعلى سبيل المثال، "التي أصبحت مصدراً مشتركاً للطاقة في الغرب بأسره،إلى تشجيع التجمعات الصناعية الكبرى، وإلى ثورة في حركة المواصلات، وإلى تراكم رؤوس الأموال، وإلى التوسع الديمغرافي، وإلى انطلاقه مدينية ضخمة" (Chaulanges,1979, p. 217).

وقد نتج عن ذلك نظامٌ مرعبٌ من الحياة في المصانع التي باتت قبلة مئات آلاف القادمين إلى المدن "ذلك أن المناجم "والورش" الصناعية كانت رطبة مزدحمة يسودها القهر والاستبداد... وهكذا بدأ التبشير بأخلاقيات جديدة، فأصبحت الخطيئة الكبرى وفقها ليست ارتكاب المعاصي أو القسوة، بل البطالة... لقد أصبحت القوة شغل الناس الجديد" (راسل، ١٩٧٠م، الجزء الأول، عدد ٦٢، صص ٢١٦-٢١٧).

لم يقتصر الأمر على هذا المستوى من التغيير أو الانقلاب، بل طاول المفاهيم ومناهج التفكير. وهذا يفسر كيف كانت كل الاتجاهات، الفكرية والعلمية على حد سواء، التي أبصرت النور في عصر النهضة، تسعى إلى التأكيد على الحقائق الثابتة التي توصلت إليها في معرفة الإنسان، أو في معرفة الطبيعة أو المادة. "حتى أصبح كل فرع من فروع المعرفة يدعي أنه علم: فالقضاة يتحدثون عن علم القضاء، واللاهوتيون عن علم اللاهوت وبموازاة علوم الفيزياء والعلوم الطبيعية تطورت منذ القرن الثامن عشر علوم أخلاقية، وإنسانية وسياسية، واجتماعية" (Grawitz, 1976, p. 28).

إن التقدم العلمي، والدراسات التجريبية في العلوم الطبيعية وعلى الحيوان، جعل من الحقيقة كل ما يقع في إطار الحس أو التجربة فقط، وأن ما يحتمل

وجوده خارج ذلك، أو ما لا يمكن أن يخضع للاختبار، لا يمكن الركون إلى حقيقته العلمية، ولهذا السبب نلاحظ أن التأريخ لعلمية أي "علم" يبدأ مع بداياته التجريبية وليس قبل ذلك.

وهكذا ساد منهج العلوم الرياضية والطبيعية والفيزياء الذي يبحث، من خلال التجربة أساساً، في قوانين العلاقات بين مكوّنات المادة. والدراسات التجريبية على الحيوان على سبيل المثال أرادت التوصل إلى القوانين الثابتة التي تنظم استجاباته المختلفة. وقد تأثرت "العلوم الإنسانية" بدورها بمنهج التجريب هذا، خصوصاً أنها انفصلت عن الفلسفة التي تهتم بالكليات والحكمة والحقائق المطلقة (Grawitz, 1976, p. 202). وكان هذا الانفصال سبباً في توسع ميادين تلك العلوم من جهة، وفي أزماتها اللاحقة من جهة ثانية. "فقد تبنت العلوم الاجتماعية نموذج العلوم الطبيعية التي تنظر الى البشرعلى أنهم "أشياء" ينبغي أن نتناولها ونسيطر عليها، الى حد كبير بنفس الأسلوب الذي تضبط به العلوم الأخرى مادتها غيرالإنسانية...وعلى هذا النحو سوف ينزلق العلم الاجتماعي بنوع من عدم التبصر الى ابتياع قطع من المعلومات على حساب الكبرياء والإستقلال الإنساني" (غولدنر، ٢٠٠٤م، ص ١١٢). وقد زعم كثير من العلماء أن الطريقة الفضلى لفهم الإنسان هي النظر اليه كما لو كان آلة، تماماً كما هو الحال مع فهم الكون بجمله... وجميع تعقيدات الوجود البشري من شأنها أن تُفسّر، آخر المطاف، من منطلق مبادئ العلوم الطبيعية ..."(تارناس، ٢٠١٠م، ص ٣٩٥).

أصبحت علاقة الإنسان بعد هذه القطيعة مع الكنيسة والدين مع نفسه. فأصبح هو الذي يقود ويوجّه ويقرّر، وتخلى عن نواهي الكنيسة وأوامرها، وباتت مرجعيته ما يراه عقله صحيحاً ومناسباً، وما تريده ميوله ورغباته والدوافع التي تحركه. هكذا توجهت العلوم الإنسانية عندما تأسست في تلك المرحلة مثل علم النفس وعلم الاجتماع الى هذا الإنسان الذي قطع صلته مع الدين وتوجه نحو ما يمكن أن يحقق رغباته وأهوائه. أي أن هذه العلوم تأسست على تلك

القطيعة مع الدين، "حتى أصبحت علاقة الإنسان مع العالَم أكثر أهمية من علاقته مع الله ومع ذاته (Grawitz, 1976, p. 202).

وفي هذا العصر "استبدلت فكرة العالَم الذي لا نهاية له، بفكرة عالم مُتناهٍ منظم، وأصبح بإمكان هذا العقل أن يقرر بنفسه بعض الحقائق اليقينية سواء في ميدان العلم أو في ميدان الفلسفة" (Grawitz, 1976, p. 28).

القطيعة التي حصلت بين العلم والدين في الغرب، نتج عنها تعظيم أولوية الفرد والفردانية، التي سيكون لها تأثيرات مهمة على المستويات الفكرية والفلسفية والتربوية والاجتماعية والفنية وسواها. لم يكن للفرد في فترة السيطرة الكنسية مثل تلك الأولوية، لأنّ الدين يعطي الأولويّة للأسرة وللمجتمع قبل الفرد. عندما انقطعت علاقة الإنسان مع الدين (الله) برز الفرد. وباتت "الحرية" الفردية أحد أهم تجليات هذه القطيعة مع الدين. خاصة " وقد حلّ عقل الإنسان والرصد التجريبي محل العقيدة اللاهوتية والوحي الكتابي المقدس، بوصفهما الوسيلة الرئيسة لفهم الكون"(تارناس، ٢٠١٠م، ص ٣٤٢).

لن تبقى تلك التحولات من دون تأثير على نظريات التربية وعلم الاجتماع وعلم النفس وسواها من العلوم الانسانية. فها هي نظريات التربية الغربية على سبيل المثال تتمحور كلها حول حرية الطفل (في مقابل التربية الدينية الصارمة) وقد اخُتصر ما عُرف بـ"التربية الحديثة" بفكرة أساسية واحدة هي حرية الطفل.

بدأ مفهوم الحرية في أوروبا بطيئا" ليتطور ويتدحرج ككرة الثلج ويطال كل أنواع النشاطات تحت عنوان الحرية:

- الفردية هي مظهر الحرية في البعد الاجتماعي.
- والليبرالية هي مظهر الحرية في البعد السياسي.
- واقتصاد السوق هو مظهر الحرية في البعد الاقتصادي.

هذه مظاهر فكرة الحرية في ثلاثة أبعاد تلخص التحول الذي جرى في أوروبا في المجالات كافة. "وها هو المثل الأعلى في القرون الوسطى الذي كانت الهوية

الشخصية فيه ذائبة الى حد كبير في كتلة النفوس المسيحية الجماعية خبا لمصلحة نمط أكثر بطولية وثنية، لمصلحة الإنسان الفرد بوصفه مغامراً، عبقرياً، ومتمرداً..." (تارناس، ٢٠١٠م، ص ٢٧٢). وحتى الإصلاح الديني يردّه تارتاس الى "هذه النزعة الفردية المتمردة ضد أعلى مرجعيات الغرب الثقافية، ضد كنسية روما الكاثوليكية "(تارناس، ٢٠١٠م، ص ٢٨٠).

انهيار«الوعد العظيم»

أدت الثورة الصناعية التي حصلت في بريطانيا بعد النصف الثاني من القرن الثامن عشر، واستمرت باكتشافاتها المتعددة ما يقرب من مئة عام حتى منتصف التاسع عشر، إلى تغييرات عميقة تبدلت معها القيم الفردية والاجتماعية والأسرية.

فقد نتج عن توسع المصانع وتنوع طرق الإنتاج والسلع والحاجة الى أسواق جديدة خارج أوروبا في بلدان المستعمرات، تدفق العمال من ضواحي المدن والأرياف بحثاً عن فرص عمل في المصانع الجديدة، في الوقت الذي بدأت فيه المدن تتشكل كعواصم مالية، وتجارية وصناعية. كما جذبت المصانع أفراد العائلة كافة، الأولاد، والمرأة والرجل. وكان من الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى تشتت الأسرة، في ظل قوانين عمل كانت لا تزال جائرة وتعسفية، وأن يشعر الأطفال خاصة بالحرمان من الرعاية الوالدية المناسبة، ما أدى فيما بعد إلى ولادة دور الحضانة، والى بروز حالات انحراف وجنوح مبكر عند الأولاد.

أدت الرغبة في زيادة الإنتاج التي باتت الآلات الحديثة توفّرها بوتيرة متصاعدة، إلى تأثيرات اجتماعية- اقتصادية وسياسية ستغّير نمط الحياة والقيم ليس في المجتمعات الأوروبية فقط، بل وفي معظم مجتمعات العالم:

ـ فقد تحوّل التطور في سرعة إنتاج السلع المختلفة الى منافسة حادة بين أصحاب المصانع للوصول الى الأسواق والى المستهلك. ما أدى الى ابتكار

كل الوسائل التي تحقق الفوز والغلبة في تلك المنافسة، فتطورت فكرة الإعلان وتوسعت الدعاية وتنوّعت وسائلها وأساليبها في الإقناع وإثارة الرغبة في الشراء، وأصبحت علماً وفناً وتخصصاً يتوجه الى دراسة خصوصيات السلعة والمستهلك في آن. وتحولت القيم المجتمعية الى قيم الشراء والإستهلاك والتملك. وأصبحت"قيم الاستهلاك والمنافسة والقوة شغل الناس الجديد" (العمر، ١٩٨٣م، عدد ٦٩، ص ١٨٢).

ـ أدى تطور الإنتاج وسرعته الى البحث عن أسواق جديدة خارج أوروبا، ما ساهم بشكل رئيس في تحريك الحملات التي قادتها أوروبا خارج حدودها لاحتلال أراض جديدة، كان الهدف منها فتح أسواق إضافية لمنتجات مصانعها وجذب مستهلكين جدد اليها، ووضع اليد على ثروات هذه البلدان لاستخدامها في دورة إنتاج المصانع الأوروبية.

ستترك هذه التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تأثيراتها المباشرة على العلوم الانسانية والاجتماعية، وعلى طرائق وأبحاث هذه العلوم النظرية والتجريبية. ففي علم النفس على سبيل المثال سوف تتحول الدراسات الى خدمة المصانع التي ترغب في تحقيق أفضل الشروط لمضاعفة الإنتاج بأقل قدر ممكن من التكاليف، ولذا فإن "تمويل الكثير من بحوث علم النفس الصناعي تقوم به إدارة المصانع لأنها تعتقد أن ذلك يمكنها من تحسين أدائها لوظيفتها.." (العمر، ١٩٨٣م، عدد ٦٩، ص ٦٨).

يحدد كوسنييه في كتابه "مقدمات في علم النفس" دور عالم نفس العمل مشيراً إلى الخدمات التي يقدمها إلى الرأسماليين وأصحاب المصانع. كما أصبحت الدراسات النفسية والاجتماعية شريكاً ضرورياً في حملات الإعلان والدعاية لأن التنافس في جذب المستهلك و"إقناعه" بهذه السلعة أو تلك، يحتاج إلى ما يعرفه علم النفس عن عناصر التشويق والإثارة وعن غرائز الإنسان ورغباته. خصوصاً أن الترويج الإعلاني يتوجه إلى عقل الإنسان تارة وإلى رغباته وعواطفه

وأحلامه تارة أخرى. كما نشأت في أميركا أيضاً الاختبارات العقلية في علم النفس، نظراً لسيادة الاهتمام بالفروق الفردية التي تميز بها علم النفس الأميركي. ولم يكن لذلك الاهتمام أن يسود لولا رغبة السلطات الأميركية في حماية نقاوة "العرق الأميركي" الذي تهدده جموع المهاجرين التي تتدفق إلى أميركا، ولولا حملات الاضطهاد ضد الأقليات العرقية والدينية" (دلماس، ١٩٧٠، ص ٦٩).

وعندما وضع دوركايم الأسس الإبستمولوجية (الموضوع، والمفاهيم، والمنهج، والنظرية) لتأسيس علم الاجتماع، "كان متأثراً بتلك التحولات العميقة في المجتمع الأوروبي، فكان الهاجس السياسي (صعود الجمهورية الثالثة)، والهاجس الإقتصادي(صعود البورجوازية) والهاجس الاجتماعي (الأزمة الاجتماعية) حاضرين بقوة في ذهنه وفي خياراته المعرفية (بوسينو، ١٩٩٥م، ص ٧).

شكلت الأزمة التي عمّت أوروبا وأميركا، منعطفاً جديداً في الحياة الغربية "فقد بدت النتائج السيئة للصناعة الكبرى: أزمة تضخم الإنتاج والإفلاسات وزيادة عدد السكان، والجمود الريفي ونهوض طبقة من الرأسماليين الصناعيين، وتكوين طبقة العمال" (راسل، ١٩٧٠م، صص ٢٩١-٢٩٢).

وجاء القرن العشرون ليمزق ذلك التفاؤل إرباً عبر معسكرات الموت، وفرق الموت، وعبر العسكرة، والحربين العالميتين، وخطر الفناء النووي وتجربته بالفعل في ناكازاكي وهيروشيما، بل أنه تضمن، وعلى نحو أسوأ، أن يكون مشروع التنوير قد حكم عليه أن يتحول الى عكس ما يعلنه. وأن يحيل مطلب التحرر الإنساني الى نظام اضطهاد عالمي باسم تحرير البشر (هارفي، ٢٠٠٥م، ص ٣١).

وإذا وضعنا أمام ناظرينا تلك الأزمة الإقتصادية، وما نتج عن الحربين العالميتين من دمار ومآس وملايين الضحايا، والتهديد بالفناء النووي، أدركنا حجم الصدمة النفسية التي أصيب بها الفرد الأوروبي، وحجم الأزمة التي مزقته وصدّعت المجتمع، والتي أصبحت مادة أساسية في الدراسات الإنسانية، بحثاً عن ذلك التوازن المفقود بين الإنسان وذاته وبينه وبين المجتمع. فقد تركت تلك

الحروب ملايين القتلى والجرحى والمعوقين، ومئات الآلاف من الأرامل والمشردين، وصراعات سياسية وعسكرية مخيفة، ونزعات عنصرية دموية، تُوِّجت بأزمة اقتصادية خانقة حطمت ما تبقى من ذلك "الوعد العظيم" الذي دغدغ الأحلام مع بداية عصر العلم والاكتشافات، وتسّيد العقل واستبعاد الدين.. "فقد انهار هيكل القيم والأفكار المسبقة مع اندلاع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) وأدى ذلك إلى إغراق العالم في بحر من الدماء لم يعرف له حتى ذلك الحين مثيلاً.. واقترن بهذه الكارثة انهيار للثقة في التقدم ونموّ جو من الشك والارتياب لم يفق منه العالم تماماً حتى وقتنا هذا (Chaulanges,1979, pp. 47-58).

وها هو يونغ Yung، العالم والمحلل والنفساني الشهير يذهب إلى أبعد من ذلك الإنهيار والى انعدام الثقة بكثير، عندما يعتبر أن تلك الأزمة "تعود إلى انفصالنا عن الروح وعن عالم ما وراء الطبيعة "فلا توجد ثقافة أو حضارة قبلنا كانت مضطرة أن تأخذ هذه التيارات النفسية الخفية بالاهتمام البالغ. الحياة النفسية كانت تجد التعبير عنها في نظم ما وراء الطبيعة بطريقة ما".

"وإن الإنسان طالما يعيش جزءاً من جماعة فلا توجد له مسائل الروح الخاصة، ولا يحتاج إلى أكثر من العقيدة المعتادة لخلود النفس، ولكن بمجرد نموه خارج نطاق الديانة المحلية – مهما كانت هذه الديانة التي ولد فيها – بمجرد ألا يصبح هذا الدين شاملاً لحياته بالتمام، حينئذ تصبح النفس شيئاً بذاته لا يمكن أن يتعامل معها بالإجراءات الطقسية وحدها.

"لهذا فإن علم النفس اليوم مؤسس على المعاناة وليس على تعاليم العقيدة أو مفروضات أي نظام فلسفي، ومجرد وجود علم نفس عرض لهزة عظيمة في حياتنا الروحية" (برونوفسكي، ١٩٨١م، عدد ٣٩، ص ٢١٣).

لقد ساد الاعتقاد أن العالم المثالي، ما بعد المسيحية والدين، عالم الحداثة الجديد سيتحقق بمجرد اكتساب معلومات كافية، ومعرفة كافية، ومهارات تكنولوجية كافية، فالتغيير مسألة وقتية حتى نبني عالماً لن يحتاج الى تغيير بعد

ذلك... فالإفتراض الأساس عند دعاة التنوير أنه كلما زاد التعليم زاد معه التسامح والعقلانية بالضرورة...لكن ثبت أن هذا الإفتراض كان طوباوياً، وأن الإيديولوجيات العلمانية (التي قادت الحربين العالميتين) سفّاكة للدماء مثل الرجعية الدينية المتعصبة.." (أبو جبر، ٢٠١٧م، صص ١٨٨-١٨٩).

توسعت الدراسات في العلوم الانسانية عموماً، وفي علم النفس وعلم الاجتماع بشكل خاص في محاولة لتفسير ما يجري في هذا العالم "الجديد"، وتعددت ميادين البحث واتجاهاته حول أسس الشخصية وتماسك المجتمع، واختلفت المفاهيم في أصل الدوافع عند الإنسان، وفي علاقة الفرد بالجماعة وفي تحديد المرض والسواء... بعدما أدت التطورات المتسارعة والمتعجلة الى "تفكيك العلاقات الثابتة بين الإنسان والدولة والمجتمع، ثم تفكيك المجتمع، وقد تغيّر بعض العناصر تغيّراً كبيراً بينما البعض الآخر قد تغيّر نسبياً (غولدنر، ٢٠٠٤م، ص ٣٥).

في هذا الإطار من التحول الفكري والمعرفي، بعدما استبعد الدين عن منظومة الحياة والتفكير واستبدل بمرجعية العقل ستُرفع الحرية الى مقام التقديس، وسيصبح التداخل والتفاعل بين العقل والحرية السمة الأبرز لعصر النهضة الذي ستتخلص فيه النتاجات التربوية والفنية والاجتماعية والأسرية تدريجاً، وبذريعة قدسية الحرية الفردية، من كل القيود والضوابط التي كان الدين قد فرضها على المجتمع. وسنشهد مع بدايات هذا العصر كيف ستتخلص التربية ونظرياتها من قيودها وضوابطها الأخلاقية، لتصبح حرية الطفل هي أساس التربية. وسنلاحظ أيضاً كيف ستنتشر في الرسوم الفنية لوحات العري رداً على مرحلة الإحتشام الديني الأخلاقي الكنسي. وكيف سيبدأ التنظير في الأدبيات النفسية والاجتماعية لتحرير الطاقات والرغبات، وستصبح قيمة العمل المنتج مادياً هي القيمة العليا للرجل وللمرأة على السواء. وستتراجع وظيفة الأمومة، لأنها تحد من حرية المرأة، ولأنها غير منتجة مادياً. كانت هذه التحولات بداية مسار، أو نفق سيدخله الغرب منذ نهايات الثامن عشر، تقوده الرغبة في التملك والإستهلاك الى جانب تقديس الحرية الفردية.

إن العالم الذي يهمين عليه الاقتصاد بشكل تام "حيث تقدر أي قيمة بحسب المال الذي تربحه" هو نتاج فكر تنموي تم الترويج له في الستينيات، "وجوهر هذا الإرث هو أن ما هو أكثر، أفضل بالضرورة مما هو أقل. وأن تنمو يعني أن نتقدم. وبغض النظر عما يريد الفرد أو يرغب فيه أو يؤمن به، فإن الأفضل له هو الحصول على أكبر قدر ممكن من تلك الحاجات أو الرغبات أو المعتقدات". صار هذا الإيمان بالنمو بوصفه خيراً في حد ذاته... حيث حاول علم النفس الإنسانوي كما طوره أبراهام ماسلو وكارل روجرز، إعادة توجيه علم النفس -والمجتمع ككل- بحيث يبتعدان عن مبادئ الإعتيادية ويتجهان الى السعي الى تحقيق إنجاز يفوق ما عداه" (هارفى، ٢٠٠٥م، ص ١٣٨).

لن يقتصر الأمر على هذا المنظور التنموي لـ"ما هو أكثر، أفضل مما هو أقل" والذي لا يعني سوى المزيد من التملك ومن الإستهلاك للحصول على المزيد من الأشياء... بل سينشأ علم خاص لهذا التحريض على الشراء، سيربط بين الشراء والتملك وبين السعادة هو "علم اقتصاد السعادة" وسيوظف عدد متزايد من الشركات "مديرين للسعادة"، وستنشأ تخصصات أكاديمية مثل "علم نفس المستهلك" من أجل فهم كيفية استجابة الإفراد وانفعالاتهم لإعلانات مختلفة... "ولو أرّخنا لبداية علم النفس الحديث بالعام ١٨٧٩، فما هي إلا عشرون عاماً أخرى قبل نشوء حقل "علم نفس المستهلك".. وبالتالي نحن بحاجة إلى فحص تاريخ علم النفس والنزعة الإستهلاكية باعتبارهما مشروعين متشابكين"... وقد أسفر الكثير من التقدم التقني عن طفرة علمية داخل منظومة أبحاث السوق" على أساس "أن الاستهلاك هو ما يولد الرفاهية العقلية العظمى" (هارفى، ٢٠٠٥م، ص ١٤-١٥).

أما ما يمكن ملاحظته من ذلك التوسع في تلك الميادين، فهو الأساس المَرَضي غير السويّ، الفردي والاجتماعي، الذي توسعت العلوم الانسانية في ظلّه بحثاً عن حل للمشكلات المستجدة بعد انهيار "الوعد العظيم"، وبعد القطيعة مع السماء في المجتمع الأوروبي.

كانت كل المفاهيم التي سيطرت على الدراسات الانسانية، والى نهايات القرن العشرين مفاهيم صراعية، تستند إلى المرض قبل السواء، وتجعل من تجربة الإنسان الأوروبي، بمشاكله ومعاناته، نموذجاً للتجربة الإنسانية في كل مكان، "فنظريات الشخصية عموماً نظريات قائمة على الصراع، وفيها يكون الصراع بين قوتين متضادتين لا سبيل إلى الالتقاء بينهما" (فروم، ١٩٨٩م، عدد ٤٠، ص ١٣).

ولهذا لم تتمكن تلك الدراسات في المجالات الانسانية من تهدئة القلق الإنساني أو معالجة جذوره، ولم تتمكن من تقديم إجابات واضحة ومقنعة إلى ذلك الجيل البائس الذي لجأ إلى "النفسانيات" هرباً من ماديات الحياة التي سلبته الهدوء والطمأنينة.

أزمة فهم الإنسان

بدأت مكوّنات الأزمة في العلوم الانسانية والاجتماعية عندما أرادت تلك العلوم تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على دراسة الإنسان، فاضطرت إلى تجزئته وإلى تغييب عناصر التأثير غير الملموسة على سلوكه وشخصيته. وفي عرض مبكّر لأزمة علم النفس المعاصر على سبيل المثال، ألقى وليام هدسون خطاباً في الاجتماع السنوي للجمعية النفسية البريطانية الذي انعقد في منتصف نيسان/أبريل عام ١٩٧٠، أشار فيه إلى الفجوة التي تزداد اتساعاً بين هذا العلم ودارسيه من الشبان الذين "يتوقعون أن يتعلموا شيئاً عن أسباب عدم إنسانية الإنسان حيال الإنسان، ونحن نعلمهم أموراً تتعلق ببناء الاستبيانات وشهية فئران أو خنازير التجارب. أنهم يريدون أن يتعلموا شيئاً عن الروح الإنسانية والفعل الإنساني، ويبحثون عن حيوية الموضوع بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى، ونحن نود أن نعلمهم صرامة البحث العلمي.." (Hudson, 1970, pp. 287-292).

كما يعتبر "مارك بيليسوك" في مقال له نشر في الفترة نفسها عام ١٩٧٣ بعنوان "الحقيقة والوهم في الاستفادة من المعرفة التي تتيحها العلوم الاجتماعية": " ترى لماذا يقوم علماء النفس بكتابة المؤلفات التي يستفيد منها رجال البوليس في التحكم

في سلوك المقبوض عليهم؟ لماذا لا يحدث العكس؟ إنه لتساؤل هام وخطير..." (حفنى، بلاء التاريخ، ص ٥٨).

إن علم النفس اليوم يعاني من مزيد من النقد "لأن تاريخه منذ خمسين عام لا يبدو سوى سلسلة متعاقبة من الانتقادات: انتقاد المدرسة المسماة علمية لعلم النفس الفلسفي القديم، وانتقاد اتباع فوندت Wundt لعلم النفس "العلمي" وانتقاد "علم نفس العناصر" الذي يعتبر نفسه ديناميكياً لعلم نفس العناصر الميكانيكي. ثم انتقاد "علم نفس العناصر" عموماً. وانتقاد علم نفس "الدلالة" لعلم نفس ما فوق "الدلالة". وانتقاد علم نفس الوعي لسيكولوجيا النفس، وأخيراً انتقاد علم النفس الذي لا يقر بالوعي ولا بالحياة الداخلية لعلم نفس الوعي" (حفني، بلاء التاريخ، ص ١٢).

إن سلسلة الانتقادات هذه، التي اتسم بها تاريخ علم النفس ونظرياته لا تعبر عن أزمة في المنهج أو في الدلالة على الحدث فقط. بل عن أزمة في رؤية الإنسان رؤية شمولية.وتنطبق هذه السلسلة من الانتقادات على علم الاجتماع وعن أزمته القادمة التي كتب عنها ألفن جولدنر "الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي" عام ١٩٧٠ (صدرت ترجمته بالعربية عن المجلس الأعلى للثقافة بمصر ٢٠٠٤).

لقد حجبت الرغبة في العلمية والموضوعية على غرار العلوم الطبيعية وما يجري في المختبرات من التعامل مع "المادة"، إنسانية الإنسان، ولم تلتفت تلك الرغبة في الموضوعية الى"أن حياة الإنسان الفكرية وحياته الأخلاقية وحياته الروحية هي حقائق تماماً مثل حياته البيولوجية" (حفني، بلاء التاريخ، ص ٨٩)[1].

١. راجع أيضاً "علم النفس الإنساني" إعداد فرانك. ت. سيفرن، ترجمة طلعت منصور، عادل عز الدين، فيولا البيلاوي، منشورات مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة ١٩٧٨. والكتاب عبارة عن قراءات تمثل اتجاهاً حديثاً في علم النفس، ويهتم "كقوة ثالثة" في علم النفس المعاصر بالميل إلى الكشف عن الجوانب الجديدة للسلوك الإنساني. "والعالم الإنساني هو أي شخص يرفض محاولة وصف الإنسان أو تناوله على أساس..علم الطبيعة والكيمياء والسلوك الحيواني... وباختصار، العالم الإنساني هو أي شخص يقرر أن هنالك أشياء في السماوات والأرض أكثر مما يحلم به في الفلسفة الوضعية... أن الاتجاه الإنساني في علم النفس، بمثابة رد فعل على تجزئة الإنسان...".

http://ipt.isca.ac.ir

ولم تلحظ تلك المدارس في علوم النفس والاجتماع رغم التنوع في مناهجها، تلك الخصوصية الإنسانية من تدفق المشاعر وتأثيرات الأخلاق، والعاطفة، وأهمية البعد المعنوي في السلوك الإنساني. "وقد أفضى إخضاع العقل للغريزة في طريقة التحليل النفسي، وإلغاء العقل في السلوكية، إلى تجريد الإنسان من إنسانيته، وهذا موقف لا يطاق في فرع من فروع المعرفة مكرس لخدمة الجنس البشري" (أغروس، ١٩٨٩م، عدد ١٣٤، ص ٨٥).

السوسيولوجيا دين جديد

في هذه البيئة من هيمنة "العقل العلمي" ومن تراجع ثقافة الدين المرجعية، نمت العلوم الانسانية والاجتماعية، وتوسعت آفاقها للبحث عن حل لمشكلات الإنسان التي تولدت عن مجتمع الصناعة الجديد وعن غياب مرجعية الدين التي شكّلت لحمة المجتمع في ما مضى.

«لقدت فقدت المؤسسات الكبرى (الدولة، والكنيسة، والعائلة، والمدرسة) نفوذها على مصير الأشخاص. ويبدو أن المجتمع كمجموعة مبعثرة مسكونة بزمر من الأفراد هم أنفسهم يتصفون بالتشتت» (كابان، ٢٠١٠، ص ٢٧٢).

هكذا سيبحث أوغست كونت على سبيل المثال (١٧٩٨-١٨٥٧) عن «دين جديد» للبشرية، يستند الى «الحقائق العلمية»، وهو مبتكر ما عرف (بعلم الإجتماع: السوسيولوجيا) وقد بدأ بما سماه «فيزياء اجتماعية» قبل أن يغيّر التسمية الى علم الإجتماع، وقد أراد أن «يضع علماً جديدا» للمجتمع مثل ما هي الحال في العالم الطبيعي. وكان ينبغي على علم الاجتماع بالنسبة اليه أن يطبق المنهجيات العلمية الصارمة نفسها في دراسة المجتمع كما هو الحال في الأساليب التي تنتهجها الفيزياء والكيمياء في دراسة العالم الطبيعي.

لماذا فكّر "كونت" بهذه الطريقة؟

لأنه اعتقد أن هذه الطريقة هي المرحلة النهائية والمتقدمة في التفكير البشري لفهم العالم الذي مر بثلاثة أطوار: اللاهوتي، والميتافيزيقي، والوضعي.

- في الطور اللاهوتي كان الفكر الإنساني، بالنسبة إلى "كونت"، مسيرا" بالأفكار الدينية، وأن المجتمع هو تعبير عن إرادة الله. هذا العصر هو مرحلة الطفولة البشرية، يفترض فيه الذهن وجود كائنات خارقة للطبيعة (الآلهة)، أو وجود إله واحد، وهو زمن المعتقدات السحرية، والأرواح، والأديان..إنه زمن ما قبل الرشد الإنساني.
- الطور الميتافيزيقي أو المجرد abstrait هو عصر شباب الفكر، بعد مرحلة الطفولة الفكرية، وفيه يتخلى الذهن عن العوامل الخارقة للطبيعة مثل الآلهة والأديان، ويستبدلها بقوى مجردة مثل الطبيعة عند سبينوزا، أو العقل في عصر الأنوار.
- أما الطور الوضعي فهو مرحلة «النضج» أو ما يسميه «كونت» «المرحلة الرجولية لعقلنا». الذي دشنته اكتشافات كوبرنيكوس وغاليليه ونيوتن، التي شجعت تطبيق الأساليب العلمية على غرار الفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء في دراسة العالَم الاجتماعي. في هذا العصر تتم المعرفة من خلال اللجوء الى الواقع واختبار التجربة. وهذا هو المبدأ الأول في الوضعية، التي ستصبح أحد أكثر التيارات الفكرية أهمية في القرن التاسع عشر. وبحسب هذا التيار يجب أن تنتهي مرحلة الذهن الميتافيزيقي (الدين) الذي يضع تصورات أبدية كونية لا يخضعها للواقع. ويجب «أن تصبح الفيزياء الاجتماعية (السوسيولوجيا لاحقاً) علماً وضعياً،لأنها تسمح بمعرفة قوانين تنظيم المجتمع (السكون الاجتماعي) وقوانين تطويره(الدينامية الاجتماعية)» (كابان، ٢٠١٠م، ص ٢٦).

سعى «كونت» الى وضع علم جديد للمجتمع لتفسير القوانين التي تنظم حياة العالَم الإجتماعي مثلما هي الحال في العالم الطبيعي سمّاه «دين الإنسانية»، الذي يقوم على الميل عن الإيمان القطعي بالعقيدة، الى الإرتكازالى المبادئ العلمية. وسيكون علم الإجتماع بالنسبة الى كونت «بمنزلة النواة لهذا الدين الجديد». وقد اعتقد «كونت» في سلطة العلم الذي يمكن أن يعيد تأسيس الإتفاق الاجتماعي المفقود، ويجعل المجتمع كلاً من جديد» (غولدنر، ٢٠٠٤م، ص ٢٠٧).

إن مثل هذا التصور الذي يقدمه «كونت» عن تطور التفكير البشري من الديني الى الوضعي، وعن دراسة المجتمع مثلما ندرس الفيزياء والكيمياء، ما هو إلا نتاج تلك التحولات الفكرية والعلمية (القطيعة مع الدين) من أصل الأنواع وخلق الطبيعة للإنسان (دارون) الى أن الكون غير مخلوق ولا علاقة له بالسماء (نظرية الفيزياء)

لقد تأسس العلم الغربي في العلوم الإنسانية والاجتماعية على هذا الاعتقاد بقدرة العلم على أن يحل محل الدين. وعلى محاولة فهم التحولات التي تجري في المجتمعات الغربية. لكن نظريات هذا العلم الغربي ستدّعي لاحقاً أنها نظريات لفهم وتفسير سلوك الإنسان في أي زمان ومكان، وفي أي مجتمع.

يقول «سان سيمون» أحد مؤسسي العلوم الاجتماعية: «كنت آمل أن تبلغ العلوم الانسانية وحدة العلوم الطبيعية وانتظامها». كان «سيمون» شغوفاً بقانون نيوتون في الجاذبية. وكان يرى أن العلم هو مجموعه أو طائفة من الاعتقادات المحققة والثابتة التي يمكن أن تحل مكان الدين كقوة تُقدِّم نظرة متماسكة للكون وللوجود الانساني، ومن ثم يوحّد البشر على أساس من الحقائق المشتركة. وهكذا يؤدي العلم وظيفة الدين بواسطة النزعة الوضعية أو تطبيق المبادئ العلمية على كل الظواهر الطبيعية والانسانية».

هكذا كان طموح أحد مؤسسي العلوم الاجتماعية: «أن يأتي العلم ويحلّ محل الدين». لأن الدين كان منظومة كاملة، فأراد استبدالها بمنظومة كاملة مغايرة هي

العلم. هذه هي نقطة الانطلاق. «إلغاء المفاعيل المباشرة لمشيئة السماء، ووجوب إخراج ملكوت العقل والعلم، من دائرة اللاهوت...» (تارناس، ٢٠١٠م، ص ٢٣٠).

بعد وفاة سان سيمون بدأ تلاميذه في إلقاء سلسلة من المحاضرات، وظل كل منهم يدور حول سؤال من هو عالم الإجتماع؟ وفي النهاية أوضحوا جميعاً أنهم يميلون الى تأسيس ديانة جديدة، ديانة الإنسانية، وأنهم يعتقدون أن علماء الاجتماع يمكن أن يكونوا قساوسة في هذه الديانة الجديدة .باختصار نُظر الى عالم الاجتماع في البداية باعتباره قسيساً» ...وقد توج كل من سان سيمون وأوجست كونت مهمتهما العقلية باقتراح وتقديم تصورات تفصيلية لديانة جديدة للإنسانية (غولدنر، ٢٠٠٤م، صص ٧٣ و٢٣٦).

ما هي سمات هذا العالَم الذي سيَخرج من دائرة اللاهوت الى ملكوت العقل والعلم؟ وما هو الوعد الجديد الأفضل الذي سيقدمه هذا العالَم للإنسان بدل الوعد الديني الذي عاشه هذا الأخير طوال قرون طويلة من السنين؟

لم تتفق رؤى المفكرين والباحثين الغربيين حول هذا العالَم الجديد. وحول كيفية اقتفاء آثار العلوم الطبيعية، وتقليد الفيزياء، وتنحية الميتافيزيقيا جانباً. وهو ما أطلق عليه عالم الحداثة، أو عصر الحداثة . لكن ستتقاطع رؤى هؤلاء المفكرين عند اعتبار الحداثة عملياً دعوة الى فصل الواقع عن القيم، والى «الإستخدام المنفصل للعلم والتكنولوجيا عن القيم». «ولا تهدف الحداثة الى استقلال العلم والتكنولوجيا عن الذاتية الإنسانية، أو الى فصل الكنيسة عن الدولة فحسب، بل الى فصل كل القيم -دينية أو أخلاقية أو إنسانية - عن الحياة العامة والخاصة، وعن العالم بأسره، لا عن الدولة وحدها؛ إنها تسعى إلى إيجاد عالم منفصل عن القيمة» (أبو جبر، ٢٠١٧م، ص ٣٨). إنها دعوة الى «تأسيس مملكة العقل والفردوس الأرضي»... وهي «رؤية علمانية تحتفي بتأليه الإنسان وتسييده على الطبيعة وتتويجه صانعاً للتاريخ». رؤية أعلنت موت الإنسان في سبيل مقولات غير إنسانية مثل السوق والقوة... وتعتبر أي التزام يتجاوز البعد

العلمي لا واقعياً وخيالياً وطوباوياً» (أبو جبر، ٢٠١٧م، صص ٤٢ و٤٥ و٦٦).

كان ذلك التفكير وقبل أي شيء آخر حركة علمانية ابتغت تحرير المعرفة من الأوهام والتقديسات، وتنظيم المجتمع في سبيل تحرير البشر من القيود"(هارفى، ٢٠٠٥م، ص ٣٢) وسيكون علم الاجتماع ابناً لهذه الحداثة، ومهمته هي كشف أسرار سير عملها في مجتمع فقد كل أساس خارج عنه (الإله، الطبيعة، القدر...)، ومن خلال هذا الوعي فإن السوسيولوجيا ستساعد البشر على التحكم الأفضل بمصيرهم» (كابان، ٢٠١٠، ص٨٠) «بعدما أصبحت النزعة العلمية scientism بديلاً حديثاً للديانة التقليدية التي انهارت» (غولدنر، ٢٠٠٤م، ص ١١٦).

هل ساعدت هذه الحداثة المنفصلة عن الدين العلوم الإنسانية في فهم أفضل للإنسان؟ وهل بات الإنسان أكثر حرية في الواقع بعدما تخلى عن تعلقة بضوابط الدين؟ وهل قدمت هذه الحداثة للعلوم الإنسانية رؤية متماسكة وثابتة وواضحة عن مجتمعات هذه الحداثة وما يجري فيها وعن مستقبل العلاقات بين أفرادها؟

رأى المشروع الفكري الحداثي في الوضعية والإنتقال من الميتافيزيقيا الى التجربة الحسية مصدراً وحيداً للمعرفة ولفهم الإنسان وتنظيم المجتمع. لكن هذا المشروع لم يتقدم في هذه المعرفة بالثقة التي كان يعتقد بأنها ثابتة مثل المعرفة العلمية. وها هي الحداثة تنقلب على مبادئها وعلى ادعاءاتها بعدما تبين أن العلم نفسه ليس حقيقة ثابتة، وأن تقدم العلم لم يحلّ مشكلة الإيمان ولم يحرر البشرية، وأن الإنسان ليس مادة جامدة، وأن الدين ليس وهماً ميتافيزيقياً. باتت الحداثة في مأزق بعدما راهنت على استبدال الدين بالعلم حتى وصلت الى"الكفر» بالعلم والعقل معاً. » إن الإيمان المتفائل بإمكانية الخروج من مآزق العلم عبر التقدم العلمي والهندسة الاجتماعية المجردين قد خاب. وها هو الغرب مرة أخرى يقف على عتبة الكفر لا بالدين هذه المرة بل بالعلم وبعقل الانسان المستقل..لقد أضاع العلم صورته النقية غير الملطخة بوصفه عامل تحرير البشرية. أضاع أيضاً ادعاءاته الراسخة منذ زمن طويل بامتلاك المصداقية المعرفية المطلقة، بعدما توقفت

منتجات هذه المعرفة أن تكون حميدة حصرياً، مع التجلي الواضح لخطأ فهمها الإختزالي للبيئة الطبيعية، ومع هشاشتها الظاهرة أمام خطر الإنحياز السياسي والاقتصادي، لم تعد جدارة العلم العلمية السابقة غير المشروطة بالثقة قابلة للتأكيد" (تارناس، ٢٠١٠م، ص ٤٣٥).

رفض "سيغمونت باومان" ما سمّاه "الإبيستمولوجيا الوضعية الضيقة" أو"الإمبريالية الوضعيّة" التي بشّرت بها الحداثة في قطيعتها مع الدين وتأليه العقل والتي تحولت الى خدمة الطموحات العالمية للدولة/ الأمة. ووجه "باومن" سهام نقده قاطعاً الى "التكنولوجيا المحايدة"، "سلطة المصالح الأداتية التقنية" التي تعزز الإنفصال القائم بين الذات والموضوع، وبين المُتحكِم والمُتحكَم، والمُخضِع والخاضع" (أبو جبر، ٢٠١٧م، ص ٤٥). ولعل هذا الإنفصال الحاد التقني بين الذات والموضوع والحياد المطلوب بينهما وعدم تفاعل الذات مع الموضوع أسس لما ستقوم به لاحقاً "الذات" الأوروبية تجاه الشعوب الأخرى "الموضوع" التي احتلتها ومارست عليها أبشع أنواع الظلم وارتكبت بحقها المجازر الدموية من دون أي رادع قيمي أو أخلاقي،ومن دون أي تفاعل أو أي تعاطف استناداً الى "عقلانية" "الذات" التي لا يجب أن تتفاعل مع "الموضوع".

اتخذ باومان من حركة التنوير نقطة انطلاق نقده المجازي، في محاولة لكشف الدور المهم الذي اضطلع به مفكرو عصرالتنوير من أجل إيجاد رؤية جديدة للعالم تخدم الطموحات العالمية للدولة -الأمة". إذ لم يكن الهدف من السيطرة على الزمان والمكان تعظيم الله... كانت الحرب ضد الإبهام، كما يقول باومان، السمة البارزة للحياة الحديثة والسياسة الحديثة والفكر الحديث" (أبو جبر، ٢٠١٧م، ص ٩١).

لقد التحقت العلوم الإنسانية والاجتماعية بهذه الحرب المفترضة ضد الإبهام، بعدما وضعت اليقين الديني جانباً، وأرادت أن تكتشف "سر الإنسان" وأن تميط اللثام عن سر المجتمع حتى ينكشف "الإبهام" خلافاً للرؤية الدينية التي تتشكل في جوانب كثيرة منها من إبهام غيبي يقيني لا يمكن إخضاعه لأي

تجريب وضعي أو تجريبي ملموس. وفي البحث عن كشف هذا "الإبهام" اللاديني قال فرويد على سبيل المثال أن هذا الإبهام الذي يؤدي كشفه الى فهم سلوك الإنسان يكمن في اللاوعي، في حين قال آخرون بأنه يكمن في رد الفعل تجاه مثيرات خارجية، بينما قال محللون أنه البحث عن التفوق والقوة وتعويض عقد النقص... حتى أن مدرسة التحليل النفسي قامت في جوهرها على إدعاء كشف هذا الإبهام.

لم يحقق "الوعد العظيم" ما بشّر به من كشف الإبهام وإزاحة الستار الديني عن العالم، ولم يحقق تلك الحرية التي بشّر بها بعد التفلت من قيود الدين وضوابطه ونواهيه. لا بل تمخض هذا الوعد "عن عالم باتت فيه عفوية الفرد وحريته متعرضتين لقدر متزايد من الخنق... وبات الأفراد دمى تتحكم فيها نوعية الحياة الحديثة في ما بدا أنه مأزق غير قابل للحل. "فمشروعات الحقبة الحديثة السياسية الثورية الكبرى، التي بشّرت بالتحرر الشخصي والاجتماعي، كانت قد أفضت تدريجاً إلى أوضاع بات فيها مصير الفرد الحديث نحو مزيد من الخضوع لهيمنة سلسلة من البنى الفوقية البيروقراطية التجارية والإعلانية والسياسية.ففي هذه السلسلة من الهيمنة على مصير الفرد "لم يعد الواقع عدو اللّذة كما كان من قبل، باتت السيادة المطلقة لمبدأ اللذة في عالم الإستهلاك". وأصبح إطلاق العنان لاختيار التوجه الجنسي للبشر إمكاناً كامناً،إن لم يكن حقاً دستورياً. هكذا تحول البغاء الى "نشاط جنسي"، وتحولت "البغي" الى "عاملة جنس" و"قوة اقتصادية" في المجتمع".... وتحول "الأبناء غير الشرعيين" الى "أطفال من أم غير متزوجة"،أو "أبناء أسرة ربها أم أو أب "أو "أطفال مولودين خارج الزواج "... لقد تمت علمنة الجنس ما بعد الحداثة ونزعت القداسة عنه" ولم يعد الجنس أداة لخلق بنى اجتماعية دائمة، بل صار أداة في خدمة التفتت المستمر..فقد صاحب الإحتفاء بالجنس تفتيت الأسرة كوحدة اجتماعية أساسية..بعدما صارات الشهوة تعلن بكل جرأة وافتخار أنها غاية نفسها وعلة نفسها المكتفية بذاتها" (أبو جبر، ٢٠١٧م، صص ٢٢٥ و٢٣٥).

هكذا أصبح الإنسان نقطة بلا معنى في الكون الحديث. وباتت الحساسية الأخلاقية والجمالية العميقة في مواجهة قدر مرعب من القسوة والفساد . وبات ثمن التقدم التكنولوجي المتسارع مطرد التنامي. وفي خلفية كل متعة وكل انجاز كانت تكمن هشاشة البشرية غير المسبوقة. ففي ظل إدارة الغرب وحفزه كان الإنسان الحديث قد انفجر منطلقاً الى الأمام والى الخارج، بقدر هائل من القوة، ومن التنوع، ومن السرعة. غير أنه بدا مع ذلك وقد أحكم نفسه في نوع من الكابوس الأرضي والصحراء الروحية، في نوع من التضييق القاسي، وفي ما بدا مأزقاً غير قابل للحل" (تارناس، ٢٠١٠م، صص ٤٦٣-٤٦٤).

وفي تأكيد على هذا الإحباط من "الوعد العظيم" الذي بشرت به حداثة ما بعد المسيحية، "وبعدما فقدت الكنيسة الكبرى الجامعة الروح المركزية التي تهب أعضاء الجسد الواحد الحياة، أصبح كل عضو على يقين بأنه مكتف بذاته، يتغنى بأناشيد السمو والإصطفاء على الأعضاء الأخرى كلها، وهذه هي الصورة التي اتضحت معالمها في مجتمعات ما بعد المسيحية، حيث أصبح كل شعب /دولة/أمة مركز الإصطفاء على شعوب /دول/ أمم العالم.

أما المفارقة الكبرى، فتتمثل في أن الإنسان صار موضع ازدراء واحتقار، ويؤكد باومنت في نبرة ساخرة أن صورة الإنسان بوصفه وحشاً أنانياً كانت لازمة لمفكري التنوير الذين لم يتركوا فرصة ليظهروا احتقارهم للعوام الجهّال والسفهاء إلا وانتهزوها" ولم يكن مشروع التنوير - كما يعتقد كثيرون في العالمين الغربي والعربي- حلماً نبيلاً بنشر نورالحكمة والحرية، بل أداة لتعزيز طموحات الدولة وإيجاد "آلية اجتماعية تحقق الإنضباط"... وهكذا، لا يظهر التنوير حركة تحتفي بالنور والحرية والعقل التنويري، بل حركة تكشف القناع عن"عقل أداتي إرهابي"، وعن "عنصرية المفكرين"(أبو جبر، ٢٠١٧م، ص ٩٩). باعتبار أن الثقافة الأوروبية هي وحدها الثقافة العقلانية، وأن الثقافات الأخرى هي ثقافات مختلفة وغير متساوية وأنها أدنى بالفعل بحكم الطبيعة، ولا تستطيع إلا أن تكون

«موضوعاً» للمعرفة، من هنا نشأت العلاقة بين الثقافة الأوروبية وبين الثقافات الأخرى كعلاقة بين «الذات» و«الموضوع». أو كعبارة عن الطغيان الإستعماري الأوروبي على باقي العالم. وبالنهاية ليس هناك شيء أقل عقلانية من ادعاء أن رؤية كونية خاصة بإثنية محددة يجب أن تفرض على الجميع بصفتها العقلانية الكونية مهما كان اسم تلك الإثنية «أوروبا الغربية» (كيخانو، موقع كتب مملّة ١٧/ ٩/ ٢٠٢٠).

توصل مفكرو التنوير والحداثة الى أن: "كل شيء يمكن أن يكون" و"ما يتعارض والطبيعة يتعارض والعقل"... وطبّقوا ذلك على المجتمع، فصار المجتمع مركز المرجعية العليا، والقوة فوق البشرية، والسيادة السلطانية، والحاكم، والمشرّع ...وارتبطت حركة التنوير ارتباطاً وثيقاً بتتويج الطبيعة إلهاً جيداً، وشرعنة العلم ديناً حنيفاً وحيداً، والعلماء أنبياءه وكهنته" (أبو جبر، ٢٠١٧م، صص ١١٣-١١٤).

اكتمل تأليه المجتمع مع ظهور السوسيولوجيا نظرية للحداثة ولا سيما في أعمال دوركهايم (١٨٥٨-١٩١٧). وهكذا بات المجتمع في نظريات العلوم الاجتماعية، الأساس الوحيد والسلطة الوحيدة والمقياس الوحيد للحياة الأخلاقية، وسيحلّ الإستسلام الى سلطة المجتمع محلّ الإستسلام لله الذي يحرر الإنسان من العبودية، وإن كان الإله لم يمت تماماً في هذا السياق كما أراد نيتشه، بل هُمّش واستبدل بسلطة جديدة "...وظهرت مطلقات علمانية مادية (بدل المطلقات الدينية) ومذاهب دنيوية واعدة بالخلاص حقيقة نهائية، مثل الحتمية التاريخية، وقانون العرض والطلب والسوق/المصنع/ والمصلحة/ اللذة / والمصالح الإقتصادية، والمجتمع، والطبقة العاملة، والفردوس الأرضي، ونهاية التاريخ...لتحل كلها مكان الإله، ومكان المفاهيم الميتافيزيقية الخاصة بالآخرة والبعث ويوم الحساب..."(أبو جبر، ٢٠١٧م، صص ١٣٠-١٣٢).

لقد تحولت الحداثة الى عبادة المعرفة ورفضت عبادة السماء. المعرفة الأرضية والعقلية باعتبارها حقيقة نهائية، وحاولت أن تلغي أساس الوجود وأصله الرباني

المتعالي، وأن تستبدله بنظام وجود كامن لا يحتاج الى شيء خارجه". وإحلال الحياة المسيحية الأخروية في عالم الدنيا. اعتبرت الحداثة الغربية نفسها مرجعية يقوم عليها تأويل الغاية النهائية من التاريخ ؛فأصبغت نفسها بشرعية وأحقية في استعمار المستقبل كما استعمرت الفضاءات المحيطة، وهي بالتالي المركز المتعالي لكل سلطة، فهي قائمة بذاتها ومكتفية بذاتها ومرجعية بذاتها في الصواب والخطأ"، ومن افتراض أن الأزمنة الأخرى كلها نسخ دونية وبدائية متأخرة ومنقوصة أو مشوهة وممسوخة ومقيتة"وهكذا تحوّل باقي العالم بدعوى "الرسالة الحضارية" والسرديات الكبرى لحركة التنوير الى "فراغ"ينبغي "اكتشافه"، ثم تصميمه بأفضل طريقة" (أبو جبر، ٢٠١٧م، صص ١٥١-١٥٣) وهذا ما ستضفيه العلوم الانسانية والاجتماعية الغربية على نفسها ايضاً بأنها علوم مرجعية بذاتها ومكتفية بذاتها، وأنها تتوجه الى باقي العالم لتصميمه "بشكل أفضل" !!!

لكن هذا الإدعاء لن يقود السوسيولوجيا الى"تصميم العالم بشكل أفضل"، بل على العكس سيؤدي ذلك كله الى فقدان الثقة بهذه السوسيولوجيا التي "التزمت قواعد الخطاب العلمي التزاماً أعمى، وأبقت المبادئ الأخلاقية خارج سردياتها، وحولت الفعل الاجتماعي الى شيء محايد لا علاقة له بالإيمان ولا بالخير أو الشر، والى شيء يمكن قياسه وفق معايير إجرائية لا وفق قيم أخلاقية. ويعتبر بوسينو المنهج التجريبي الذي ألزمت السوسيولوجيا نفسها به خدعة "انكشفت". فالمنهج باعتباره الطريقة الصحيحة والسليمة التي توصلنا الى نتائج أفضل في أسرع وقت وجهد، لم يستطع أن يتلاءم مع موضوع علم الاجتماع، هذا الموضوع الذي لم يتحدد بعد، فتعددت المناهج بتعدد الموضوعات، وتفاقم الصراع المعرفي داخل النسق السوسيولوجي، وانقسم المشهد السوسيولوجي بين مؤيدي "الكم" ومؤيدي"الكيف"، حتى أصبح موضوع علم الاجتماع في القرن العشرين هو الصراع الداخلي حول أفضل منهج، وأحسن أداء وأسلوب وغاب الهدف الرئيس لفهم المجتمع داخل غبار المعركة" (بوسينو، ١٩٩٥م، ص١٨).

لا بل أكثر من انكشاف خدعة "المنهج التجريبي"، ستشهد هذه السوسيولوجيا "تحطم كل شيء، وتفتت كل شيء" كما يقول بيار بورديو: "لقد تميزت هذه المرحلة من تاريخ السوسيولوجيا الغربية بالإختلاف في كل شيء، والصراع على كل شيء داخل النسق المعرفي السوسيولوجي...لقد تفتت كل شيء، الجماعة التي تحترف مهنة علم الاجتماع بصفتها جماعة علمية، ودور عالم الاجتماع، ومقاييس العلمية، كل آمالنا، وكثير من رجالنا، لقد تحطم كل شيء من منظومة المفاهيم والنظريات التي استخدمناها من أجل إضفاء مفهوم على العالم الذي نعيش فيه، أو نعتقد أننا نعيش فيه، إلى التزامنا وهويتنا المهنية، وأصبح الآن باطلاً وغير مفيد..." (Pierre, 1984, p. 37). كتب يونغ في نهاية حياته، مشبّهاً ما يجري ببداية الحقبة المسيحية قبل ألفي سنة، يقول" مزاج مفعم بالتدمير والتجديد الكونيين بات يطبع عصرنا. وهومزاج يتجلى في كل المجالات سياسياً واجتماعياً وفلسفياً... وسوف يتعين على الأجيال القادمة أن تأخذ هذا التحول الإنعطافي الحاسم في الحسبان إذا لم تكن الإنسانية متجهة نحو تدمير ذاتها من خلال جبروت طاقاتها التكنولوجية العلمية الخاصة.." (تارناس، ٢٠١٠م، صص ٤٩١-٤٩٢). وكتب هايدغر في نهاية حياته عبارة: "ربَّ ما يستطيع إنقاذنا".

خلاصة البحث

تأثَّرت "العلوم الإنسانيَّة" في الغرب بمنهجِ التَّجريب وتبنَّت أنموذج العلوم الطَّبيعيَّة الَّتِي تنظر إِلى البشر على أنَّهم "أشياء" ونتج عن القطيعة الَّتِي حصلت بين العلم والدين في الغرب، تعظيم أولويَّة الفرد والفردانيَّة، فباتت "الحرِّيَّة" الفرديَّة أحد أهمّ تجلّيات تلك القطيعة مع الدين. وقد حلّ عقل الإنسان والرَّصد التَّجريبيّ محلّ العقيدة اللَّاهوتيَّة والإيمانية. لكن هذا التعظيم للفردانية لم يحقق الإطمئنان النفسي للفرد الغربي. ولم تتمكَّن الدِّراسات في المجالات الإنسانيَّة من تهدئة القلقِ الإنسانيّ، أو معالجة جذوره، ولم تتمكَّن من تقديمِ إجاباتٍ واضحة ومقنعة إِلى

ذلك الجيل البائس الَّذِي لجأ إِلى"النَّفسانيَّات" هربًا من مادِّيَّاتِ الحياة الَّتِي سلبته الهدوء والطُّمأنينة.هكذا، سيبحث أوغست كونت، على سبيل المثال، (١٧٩٨م-١٨٥٧م) عن "دين جديد" للبشريَّة، يستند إِلى "الحقائق العلميَّة"، وهو مبتكر ما عُرِف (بعلم الاجتماع: السُّوسيولوجيا)

لقد تأسَّس العلم الغربيّ في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة على ذلك الاعتقاد بقدرة العلم على أن يحلّ محلّ الدِّين. لكن المشروع الفكريّ الحداثيّ انقلب على مبادئه وعلى ادِّعاءاته بعدما تبيّن أَنَّ العلم نفسه ليس حقيقةً ثابتةً، وأَنَّ تقدُّم العلم لم يحلّ مشكلة الإيمان، ولم يحرّر البشريَّة، وأَنَّ الإنسان ليس مادَّة جامدة، وأنّ الدين ليس وهمًا ميتافيزيقيًّا.

باتت الحداثةُ في مأزقٍ بعدما راهنت على استبدالِ الدين بالعلم حتّى وصلت إِلى "الكفر" بالعلم والعقل معًا". ولم يُحقِّق "الوعد العظيم" ما بشّر به من كشف الإبهام، وإزاحة السِّتار الدينيّ عن العالم، ولم يحقِّق تلك الحرية الَّتِي بشّر بها بعد التَّفلُّتِ من قيود الدِّين وضوابطه ونواهيه.

هكذا، أصبح الإنسان نقطة بلا معنى في الكون الحديث. ولن تتمكن السوسيولوجيا من "تصميم العالم بشكلٍ أفضل"؛ بل على العكس سيؤدِّي ذلك كلّه إِلى فقدانِ الثِّقة بتلك السُّوسيولوجيا.

وستشهد تلك السوسيولوجيا "تحطّم كلّ شيء، وتفتُّت كلّ شيء"، والصّراع على كلّ شيء داخل النَّسق المعرفيّ السّوسيولوجيّ...ما سيعيد الإعتبار لدى كثير من المفكرين والفلاسفة وعلماء الاجتماع الى البحث مجدداً عن أهمية البعد الديني وعن تأثيراته النفسية والاجتماعية والمعرفية الذي ابتعدت عنه الحداثة وأهملته العلوم الإنسانية الغربية.

المصادر

١. أبو جبر، هجاج. (٢٠١٧م). نقد العقل العلماني، دراسة مقارنة لفكر زيغمونت باومان وعبد الوهاب المسيري. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، صص ١٨٨-١٨٩.

٢. أغروس، روبرت م. ستانسبو، جورج ن. (١٩٨٩م). العلم في منظوره الجديد. سلسلة عالم المعرفة، (١٣٤)، ص ١٥٨.

٣. ألفن، غولدنر. (٢٠٠٤م). الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

٤. أنيبال كيخانو. (٢٠٢٠/٠٩/١٧م)."الكولونيالية والحداثة العقلانية" موقع كتب مملّة.

٥. برونوفسكي، ج. (١٩٨١م). ارتقاء الإنسان (ترجمة د. موفق شخاشبرو). سلسلة عالم المعرفة، (٣٩)، ص ٢١٣.

٦. برينتون، كرين. (١٩٨٤م). تشكيل العقل الحديث (ترجمة: شوقي جلال). سلسلة عالم المعرفة، (٨٢)، صص ١٦٤-١٧٠.

٧. تارناس، ريتشارد. (٢٠١٠م). الآم العقل الغربي، فهم الأفكار التي قامت بصياغة نظرتنا الى العالم. دار العبيكان، المملكة السعودية.

٨. جوتفريد، روبيرت. (٢٠١٧م). الموت الأسود. القاهرة: المركز القومي للترجمة.

٩. جيوفاني، بوسينو. (١٩٩٥م). نقد المعرفة في علم الاجتماع. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

١٠. دلماس، كلود. (١٩٧٠م). تاريخ الحضارة الأوروبية. بيروت: منشورات عويدات.

١١.راسل، برتراند. (١٩٧٠م). حكمة الغرب (الجزء الأول)، سلسلة عالم المعرفة الكويت، (٦٢)، ص ٨.

١٢.شورون، جاك. (١٩٨٤م). الموت في الفكر الغربي (ترجمة كامل يوسف حسين). سلسلة عالم المعرفة، (٧٦)، ص ١٢٣.

١٣.عبد الله العمر. (١٩٨٣م). ظاهرة العلم الحديث سلسلة عالم المعرفة. (٦٩)، ص١٨٢.

١٤.فروم، إريك. (١٩٨٩م). الإنسان بين الجوهر والمظهر. سلسلة عالم المعرفة، (١٤٠)، ص ١٣.

١٥.قدري، حفني. (بلاتاريخ). حول التاريخ الاجتماعي لعلم النفس، القاهرة: بي الناشر.

١٦. كابان فيليب. (٢٠١٠م). علم الاجتماع من النظربات الكبرى الى الشؤون اليومية. سوريا: دار الفرقد.

١٧.هارفي، ديفيد. (٢٠٠٥م). حالة ما بعد الحداثة، بحث في أصول التغيير الثقافي. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

18.Pierre, Bourdieu. (1984) **.***Questions de la sociologie*. Ed. De Minuit. Paris.

19.Histoire. M. Chaulanges. J. M. D'Hoop. Delagrave. Paris 1979, pp. 47-58**.**

20.Hudson, L. (1970). "The choice of Hercules". Bull. Br. Psycholo. *Soc*. (Vol. 23), pp. 287-292.

21.Bennett, J. M. and Hollister, C. W. (2006). *Medieval Europe: A Short History* (New York: 4 Mc Graw-Hill.

22.P Byrne, Joseph. (2012). *Encyclopedia of the Black Death* (Vol. 1). "Anti–Semitism and Anti–Jewish Violence before the Black Death.

23. Grawitz, M. (1976). *Methodes des Sciences Sociales*. Paris: Dalloz.

24. Barry. Stéphane and Gualde, Norbert. (2006). "The Biggest Epidemic of History" *La plus grande épidémie de l'histoire*, in: *L'Histoire*n°310.